من تراب (٢٧٤) حينما يكون النصر هزيمة ! (*) الطريق!

كانت هزيمة ١٩٦٧ زلزالاً هائلا لم يخف زلزلته أو يعوق دون مواجهتها أن أطلق عليها أنها نكسة .. فلم يحل اللفظ المخفف دون معرفة حجم الكارثة، ومن ثم لم يحل دون دراسة الأسباب الخفية والظاهرة التى أدت إليها .. ولولا هذه الدراسة، والبرنامج الصادق الدءوب الذى بدأه عبد الناصر لمعالجة الأسباب وبداية البناء، واستكمله السادات بعد وفاة عبد الناصر .. لولا العلاج والبناء من واقع معرفة الأسباب، لما أمكن للوطن أن يجتاز الهزيمة، ولا أن يحقق انتصار رمضان / أكتوبر ١٩٧٣ .

أشر وأدهى وأخطر من الفشل والإخفاق، أن تنكره وتمارى فيه، وأشر وأدهى وأخطر من إنكاره أن تتصوره أو تصوره للآخرين نصرا، لا لأن الهزائم لا تتحول إلى انتصارات مهما أسبغت عليها من مسميات، وإنما لأن الإنكار والمماراة لا تتيح دراسة ومعرفة الأسباب، بل وتحول الفشل إلى إدمان، والإخفاق إلى عادة لا مفر من تكرار الوقوع فيه، وهذا هو من أسف حال الحزب الحاكم فى مصرنا المحروسة، فهو قد ترك الزلزال الحادث فى نقابة المحامين، والذى سقط من حملة المباخر أنه بالفعل زلزال، ليعود إلى الإنكار والمماراة، فيصور للناس، والأدهى أنه يصور لنفسه، أن الإخوان المسلمين قد انهزموا هزيمة منكرة، وأن الحزب الحاكم وقائمته قد انتصروا انتصارا مبهرا آيته النتيجة - الكاذبة ! - التى أعلنت بعد الرتق والملاحق والرأفة والتعديل وبعد أن ظلت نتيجة العضوية

(*) المال ٢٠٠٩/٦/٩

محتبسة عن الإعلان ثلاثة أيام حتى تم الرتق الذى يعتبره فلاسفة التبرير والتنظير نصرا مؤزرا ؟!

قد يستطيع فلاسفة التنظير والتبرير أن ينحو باللائمة على الكتلة التصويتية المصمتة للإخوان المسلمين، وعلى مبدأ الولاء والطاعة التى تحول دون المناقشة أو المعارضة، وتضمن مجموع الكتلة، وقد يزيدون فيقولون إن الإسلام لم يعرف بيعة تشمل العقل والفكر والإرادة والاختيار، وأن الإسلام أعلى مقام العقل حتى فى أمور العقيدة والتبعة والتكليف، وفى الحديث : " الدين هو العقل، ولا دين لمن لا عقل له "، والإسلام قد جعل التفكير فريضة إسلامية كتب عنها العقاد كتابا ضافيا بذات العنوان، وأقر الحق فى المعارضة والانتقاد حتى قال الشيخ محمد الغزالى فى كتابه: " من هنا نعلم " : " إننا إذا رجعنا إلى تعاليم الإسلام وجدناه يخلق أمام كل حكومة - معارضة جريئة يقظة، تتعقب كل خطأ بالنقد، فإذا فرط جيل من المسلمين فى هذا الواجب - خرج عن تعاليم الإسلام " . وقد يضيف المنظرون اللائمون أن جذور ذلك واضحة فى سنة الرسول صلى الله عليه وسلم الذى كان يشاور وينزل أحيانا على رأى غيره (ماء بدر / حفر الخندق / تلقيح الأشجار) .. وأن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فريضة مفروضة، وفى الحديث : " لا يكن أحدكم إمعة يقول أنا مع الناس إن أحسن الناس أحسنت، وإن أساءوا أسأت، وإنما وطنوا أنفسكم إن أحسن الناس أن تحسنوا وإن أساءوا أن تجتنبوا إساءتهم " .. ولم يتعال الراشدون أنفسهم على حق الرعية فى نقدهم، بل والحث على ذلك، فقال الصديق أبو بكر: " إن أحسنت فأعينونى، وأن صدفت (ملت وأعرضت) فقومونى ". ودارت صيغ جميع الروايات لخطبته حول هذه المعانى التى تحترم العقل وحق الناس فى التفكير والنقد والاختلاف فى الرأى والإعراض عن الخطأ، حتى قال عمر بن الخطاب للرعية: " من رأى منكم فىّ اعوجاجا فليقومه ".. ولم يغضب ممن قال له : " والله لو رأينا فيك اعوجاجا لقومناه بسيوفنا "، بل قال له مرحبا: " الحمد لله الذى جعل فى أمة محمد من يقوم عمر بسيفه " .

قد يتعلل المنظرون والمبررون بأن كتلة الإخوان التصويتية مصمتة ولا تناقش ولا تراعى أى اختلاف فى الرأى، وأن هذا هو مناط غلبتها .. ولكنك لا تملك حين تحاجى أن تناقش الآخر فيما يلزم ولا يلزم نفسه به، وإنما واجبك أن تعرف وتبحث وتناقش فى أسباب إخفاقك أنت، ولو ناقش فلاسفة التنظير فى الحزب الحاكم أسباب الإخفاق المتكرر، لعلموا أن السبب يكمن فى غياب المنظور ذاته عن آفات الحزب الناشبة فى جذوره، والتى أفقدته قوام الأحزاب الحقيقية، ولعرفت أنك حين تغلق أبواب الحرية وتصادر على الآخرين بقوة ونفوذ السلطة، فإنك لن تجنى فى تنظيمك نفسه إلا الحصرم .. إن مشهد الكتلة التصويتية المصمتة للإخوان أولى بالاحترام من المشاهد المهترئة التى قادها بلا جدوى المهندس أحمد عز بكل أدوات المال والسلطة ونفوذ وآليات الإدارة، ولعرف أن من أسباب الفشل أن يترك الحزب قامات عالية فى المحاماة والقانون من أعضاء الحزب، ويعطى ملف نقابة المحامين لمن لا شأن ولا معرفة له بالمحاماة والمحامين .

سوف يظل الحزب الحاكم على إخفاقه لو لم يقرأ الانتخابات قراءة جيدة وصادقة، وهو لو قرأها لعرف أن كتلة الإخوان التصويتية تبلغ (٣٢) ألف صوت وتتجلى فيما حصل ويحصل عليه عادة الأستاذ أحمد سيف الإسلام حسن البنا (٣١٩٨١ صوتا) .. وهو الرقم الذى دارت بالقرب منه الأصوات التى حصلت عليها باقى القائمة الإخوانية ولم تنزل عنه إلا قليلا، وذلك لا يكشف فقط بهتان عمليات الرتق التى جرت فى العضوية على مدار ثلاثة أيام، وإنما يؤكد أن هذه الكتلة إضافة إلى أصوات مجموعة الخرباوى / نوح / بثينة القماش - هى التى دفعت بمرشح الإخوان إلى مقعد النقيب، واللافت أن الأستاذ الخرباوى صرح هو الآخر بتصريح قريب من التصريح الضمنى لمسئول الملف بالإخوان فقال : إنهم يعطونه أصواتهم رغم إقراره بأنه لا يملك الشخصية الكاريزمية ولا الخبرة ولا الحنكة، وإن لم يقل كما لم يقل مسئول الملف بالإخوان : ماذا يملك من

قدرات حتى يدفع به إلى هذا الموقع الجليل فى كارثة غير مسبوقة فى نقابة المحامين !

ظنى بل يقينى أن الحزب الحاكم يحمل المسئولية الأكبر من أوزار ما جرى لنقابة المحامين والمحاماة !!